الوهم

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أكثر ما يقعد بالانسان عن الطلب ، أو يصده عن السعي أو يصرفه عن الأقدام ، وهم لا حقيقة ؛ وقل أن يقدم الذي يطول تفكيره ومشاورته لنفسه ؛ ويندر أن يفوز بالطيبات في هذه الدنيا إلا الجسور أو « الفاتك اللهج » كما يقول بشار ، أي الذي لا يتردد ولا يضيع الوقت والفرص في الموازنات والمعادلات وحساب العواقب والمغبات

تكون مع المرأة التي تحبها ، فتحدثك نفسك أن تبثها ما تجد ، أو على الأقل أن تثني على جمالها أو ذوقها في اختيار ثيابها . فتتردد مخافة أن يسوء وقع ما تقول في نفسها وأن تعد ذلك منك تسحباً واجتراء عليها ، فتحجم ، وتمتعض هي ، لأنك بخيبت أملها فيك ورجاءها عندك . وقد لا تحب المرأة الرجل ، ولكنه لا يسوءها منه أن تعرف أنه يحبها ، ولا يثقل عليها أن يثني بما يعلم وما يتخيل أيضاً ؛ والمرأة تنتظر من الرجل أن يشعر بجمالها وأنوثتها قبل أن يشعر بعقلها أو علمها أو أدبها أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى . وكثيراً ما تقرأ لي الفتيات ما يكتبن أو ينشدنني ما ينظمن ، حتى إذا فرغن من التلاوة تعمدت أن أهمل ما سمعت منهن وذهبت أصف لهن ما وقع في نفسي من صوتهن وهيئتهن وهن يقرأن ، وكيف كان النسيم يعبث بذلاذل الثوب ويكشف عن سيقانهن البضة ، وكيف أن خصورهن كن يغرين بالتطويق ، وشفاههن وهي تتحرك وتنتق وتفترق ، وتختلج من فرط التأثر بالمعاني المصورة في الكلام ، تحمل على اشتهاء القبلات الطويلة ، ولا أراهن يغضبن لذلك أو يتجهمن ، أو حتى يتكلفن العبوس والقطوب ، بل تشرق وجوههن ويشيع فيها البشر ، وتومض عيونهن وميض الجذل والاغتباط والرضى ، وأنا أفعل ذلك لأسرهن وأشرح صدورهن ولأهرب من إبداء الرأي في كلام لا أرى له قيمة أو وزناً فننتقل بسهولة إلى حديث آخر نخوض فيه ، وتطوى الورقات وتدس في الحقائب ، ونحن نسبح بالكلام ، ثم ينصرف راضيات مسرورات شاكرات ، وأبقى أنا أو أذهب ، ولا أكون قد رددت نفسي على مكروهها

وقد جربت الناس فلم أجد ما يريح مثل الاجتراء عليهم . كنت في بعض مآربي مضطراً إلى الاتصال في عملي برجل سريع البادرة عظيم الغرور متقلب الرأي فلا راحة لانسان معه ، وآثرت الملاينة في أول الأمر وقلت : أساير خطوة أو خطوات لأجره باللباقة والكياسة إلى حيث أريد من حيث لا يشعر هو . فكان يفطن إلى حيلتي في بعض الطريق فينبو في الزمام ، فخطر لي أن المنطق والحجة لعلهما أجدى ، فصرت أجادله بالتي هي أحسن ولكن بالبرهان والبينة ، فكان يتململ ويتأفف ولا يكتم ضجره مني وكراهته للجاجتي ، فضاق صدري يوماً وخرجت معه عن طوري — على ندرة ذلك جداً — ولم أستطع أن أملك زمام نفسي ، فأسمعته من رأيي فيه ما أعتقد أنه أوجع ما سمع في حياته ، فما راعني إلا استخذاؤه والا أنه أذعن ، وراح بعد ذلك يتقي أن يثير غضبي ويخشى بادرتي أشد الخوف . فاسترحت

وقد يظن القارئ أني أشير بالتوقح على الناس وسوء الأدب معهم ، وما أريد شيئاً من هذا ، وإنما أقول إن احترامك لغيرك لا ينفي أو يمنع أن تحترم نفسك ؛ ومن احترام النفس أن تكون صريحاً وحازماً ، والصراحة والجرأة ليس معناهما قلة الأدب ، فأنك تستطيع أن تذهب في الصراحة إلى أبعد مدى وأن تتحفظ مع ذلك بالأدب . ومتى عرف الناس فيك الصراحة وألفوا منك الشجاعة ، اقتنعوا بذلك ووطنوا أنفسهم عليه وأعفوك من كثير مما تكره

وقد قص علي بعضهم حكاية شاب اتخذت منه زوجته دابة ، فهو لا يفعل إلا ما تأمر ، ولا يخرج أو يدخل أو يقوم أو يقعد أو يأكل أو يشرب إلا إذ أذنت له ، وقيل لي إنها هي التي تنتقي له ثيابه وتختار له ما يوائمها من قميص وربطة وحذاء إلى آخر ذلك . وتأمره فيصادق هذا ويخاصم أو يعادي ذاك ، ويصل فلاناً ويقاطع فلاناً ، فعجبت ! وسألت محدثي : وماذا

مهتزة كالموج في الموج . هل خلقت روح البحر في جسمها المتوجرج فشيء يعلو وشيء يهبط وشيء يثور ويضطرب ؟

ثم دقت الموسيقى بألحانها المتكلمة ، ودقت أعضاء هذا الجسم بألحانها المتحركة ، وأحسستا كأن روح الحديقة جالسة بيننا تنظر إليها وتتعجب . تتعجب من قوامها للغصن الحي ، ومن بدنها للزهر الحي ، ومن عطرها للنسيم الحي

أما صاحب القلب المسكين ؟

(يتبع)

يخيفه منها ؟ أهو يخشى أن تأكله إذا اعترض أو أبى أو تمرد على هذا السلطان ؟ فهز محدثى رأسه ولم يستطع أن يذكر لى سبباً معقولاً . وما أزال إلى هذه الساعة عاجزاً عن تصور ما تستطيع هذه المرأة أن تصنع إذا انتقض زوجها على هذا الاستعباد ؟ هى وقفة واحدة يقفها الرجل فلا يسع امرأته إلا أن تلزم حدها وتترك له حقه فى نفسه . وهذه الوقفة لا تحتاج إلى ثورة ، ولا تتطلب أن تقوم قيامة البيت ، بل لعل الهدوء أحجى وضبط الأعصاب أجدى . وما أظن امرأة تكبر رجلاً يكون عنانه فى كفها الرخص ، ولاشك أنها لاتنفك تحتال لتخضعه من حيث لا يشعر ولا يدرى ، والرجل الرشيد يدرك ذلك ولا يخفى عليه أنها تدور من ورائه لتحمله على ماتريد فيلين لها ليرضيها ويسعدها بالشعور بالنجاح ويجعلها بذلك ألين فى يده من ناحية أخرى . وحياة الرجل والمرأة مناوشات مستمرة ، ولعلها أشبه شىء بالحرب التى تشنها المصابات المتحصنة فى رؤوس الجبال على الجيوش المنظمة . وقدرة الرجل وسطوته معترف بهما ، ولكن المرأة لا تقر لها الاقرار التام ولا تزال تختبئ وتطلق قذيفتها . وخير للرجل وأجلب لراحته أن يدع لها فرصاً كافية لأصابة الهدف ، فتسكن نفسها وترضى عن حالها ، وإلا دفعها إلى التمرد الصريح . ولكنه ينبغى أن يكون له وجود وكرامة ، وإلا خسر احترامها له . واحتفاظه بكرامته واستقلاله وحريته لا يكلفه إلا أن توقن هى أنه لا خير فى محاولة إخضاعه لها .

وقد زاولت التعليم عشر سنين فما أذكر أنى احتجت يوماً أن أعاقب تلميذا ، ولو تمردوا على لما وسعنى شىء فأنى واحد وهم كثر ، ولو انتقضوا على نظام المدرسة لما استطاعت أن تكرههم عليه ، ولكن التلميذ يتوهم البأس والشوكة والسطوة والقوة ، ويرهب ما يتوهم ، ويطول عهده بذلك فيتقرر فى نفسه . وقد كنت وأنا معلم لا أحجم عن مصارحة تلاميذى بأن سلطان المدرس خيالى ولا حقيقة له ، وأنهم لو شاءوا لتناولونى وقذفوا بى من النافذة ، وقذفوا بالمدرسين جميعا وبالناظر أيضاً ورائى ، وكنت أراهم يبتسمون لما يسمعون منى ، ثم يعودون الى ما ألفت منهم من حسن الأصغاء وشدة الحرص على النظام

وكبر ابنى وصار أطول منى قامة ، وأنا الآن كهل وهو شاب ، وقد توخيت فى تربيته أن أدعه حراً ، وأن أجعله يشعر باستقلاله ، ومع ذلك لا أراه يجترىء الاجتراء الذى أتوقعه وأريده ويسرنى أن أراه منه ، لأنه يهاب ذلك السلطان الذى درج على الكبارى والاقرار له منذ الصغر . فهو لا يزال طفلاً بالقياس إلىّ فيما أرى ، وإنه لكذلك إذا اعتبرنا التجربة والعلم وما إلى هذا ولكن وهم الأبوة ، أو سلطانها ، أو لا أدرى ماذا ، يصده حتى عما لا بأس منه ولا ضير ، ولا عيب فيه ، ولا خوف من الزجر عليه . وأنا أيضاً كنت طفلاً — كما لا أحتاج أن أقول — وكان هذا شأنى ، لأن للعادة سلطانها

ولو جرب الناس الشجاعة والأقدام لأدهشهم أن ما كانوا يخافونه أو يتقونه أو يتوقعونه ، لا وجود له ، وأنه لم يكن سوى وهم ليس إلاّ . وأكرر أنى لا أحض على تجاوز الحدود ، فليس من حسن الأدب أن يكون المرء جبانا أو ذليلاً ، ولا من سوئه أن يكون عارفا بحقوقه حريصاً عليها وجريئاً فى سعيه وصريحاً فى قوله ، أى مخلصاً لنفسه

ابراهيم عبد القادر المازنى

لجنة التأليف والترجمة والنشر

ضحى الإسلام

الجزء الثالث

للأستاذ

أحمد أمين

يبحث فى عقائد الفرق الدينية فى العصر العباسى الأول من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج ، كما يبحث فى التاريخ السياسى لكل فرقة وفى أدبها

يقع فى نحو ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير وثمنه عشرون قرشاً عدا أجرة البريد

ويطلب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة